أدب المرأة والمجتمع العربي

بقلم عايدة مطرجي ادريس

مما لا شك فيه (*) ان تطور أي مجتمع يكمن في مدى تطور المرأة فيه . والمجتمع العربي ، الى فترة غير بعيدة ، كان ما يزال يعتبر موضوع المرأة نوعا من المحرمات . فما مدى تأثير هذه النظرة في الادب العربي الحديث ؟ وهل لعب الادب دور المنفعل ، السلبي بهذا المجتمع ام أنه فعل فيه ؟

(١)

أ) لا ريب ان الادب العربي الحديث يجر وراءه ثقل الماضي بمواجهته المرأة التي كانت محرومة من حقها في العلم والحب والعمل . وقد انعكست هذه النظرة في الادب ، فامتلأ بصور الوأد والثأر للشرف وللعائلة . وتكاد قصص الحب تقوم على وقوف المجتمع في وجه حق المرأة في الحب ازاء الاعراف الدينية والطبقية والقومية .

ب) الى تاريخ متأخر كان الكاتب الرجل غالبا ، هو الذي يعكس هذه النظرة في أدبه . وكان في أغلب الاحيان شاهدا ، وثائرا حينا واذا اتفق وثار فان هذه الثورة تبدو واهية الجذور : لقد ظلت المرأة سلعة ، دون ان تخرج عن نطاق الشيء الممتلك او الحلم المرتجى . والشعر العربي مليء بالتعبير عن الحرمان من الحب ، حتى اذا امتلك ، اصبح شيئا باهتا ومرفوضا .

ج) اما التعبير الادبي او الشكل الادبي لهذا الحب ، فلم يكن يخرج الا في النادر عن حدود تصوير العاطفة المستعرة . ولم يكن يتطرق الى تصوير رغبات الجسد الطبيعية .

(٢)

أ) المرحلة الجديدة التي عرفها مجتمعنا ابان النهضة الحديثة ، كانت نتيجة ثورة اجتماعية وسياسية . وكان الالم ، والشعور بالظلم (ظلم المستعمر وظلم الرجل) الباعث الاول للثورة . ولقد لعب الادب دورا بارزا في تعميق روح التمرد والرفض والثورة . ولنا مثلا في كتابات جبران خليل جبران وامين الريحاني من لبنان اكبر شاهد . وفي فجر الاستقلال ، فتحت ابواب التعليم امام المرأة ، فكان العلم المنطلق الاشمل لتنظيم هذه الثورة وتوسيع آفاقها . فبالعلم دخلت المرأة ميدان التفكير وحققت :

ـ الاستقلال الاقتصادي ، مشاركة في المسؤولية المالية للاسرة .

وبالتالي سعت الى التحرر من نير العبودية .

ولقد عبر الادب عن هذا التحول في المجتمع ، فصور كيف ان الجامعة مثلا اصبحت مكان التعارف ، وكيف اصبح اللقاء يتم في المقاهي ، وكيف غدا الحب ، والتعبير عنه عاطفة انسانية تجهر بها المرأة ولا تخاف . وحتى الجنس لم يعد من المحرمات ، بل اصبح حاجة ، ومطلبا لا تكاد تخلو منه اية رواية معاصرة .

ب ـ الشيء الجديد في تاريخ هذه الفترة ان المرأة نفسها شاركت في هذا الادب وعبرت بقلمها عن رفضها الماضي ، فكما عرفنا مثلا سيمون دوبوفوار وفرنسواز ساغان ممن تأثر بهن المجتمع ، كانت روايات ليلى بعلبكي وكوليت خوري وقصص غادة السمان مثلا ابلغ دليل على رفض كل ما تعارف عليه مجتمعنا على انه من المحرمات ، موضوعا وشكلا ، عاطفة وجنسا .

وعرفنا في هذه الفترة كثيرا من ادب الجنس ، لدى كل من الكاتب والكاتبة ، كتعبير عن ثورة جيل لم ير في منظوره اكثر من الجنس موضوعا للثورة ، بينما رآه فريق آخر في ثورة قومية انسانية . وبرزت خلال هذه الفترة ، سميرة عزام ، الاديبة الفلسطينية الراحلة ، ترفض واقع الهجرة والتشرد ، وتغني احلام العودة ، وتحث عليها ، فكانت قصصها من حيث المستوى الفني والنزعة الانسانية ، احدى الركائز فيما يسمى بادب النكبة وادب ما بعد النكبة ، ذلك الادب الذي مهد التربة الصالحة لنمو الثورة الفلسطينية .

ج ـ وفيما كان المجتمع الغربي يستمر في ثورته عن طريق الجنس ، حتى اصبح الجنس هو التعبير عن الثورة او هو الثورة نفسها ، كان الادب العربي ، فيما هو يتأثر بهذه الافكار ، يتخذ لنفسه ، غالبا ، منعطفا جديدا يميز المرحلة المعاصرة من مراحل تطوره ، تصبح فيه المرأة ، في الادب ، جنسا وحلما وثورة .

وتتحدد هذه الفترة من ثورة ٢٣ يوليو التي تأثر بها العالم العربي . وخلالها سقطت اكثر من ملكية ، وانهار اكثر من نظام ، وطرحت فيها مبادىء اشتراكية ، وانفتحت آفاق جديدة من الوعي والثورة ، وانطرحت مفاهيم جذابة للبطولة والتحرير والنصر . خضات عديدة هزت المجتمع

(*) نقاط وملاحظات عامة القيت في الندوة التي عقدت في موسكو من ١١ الى ١٣ ايلول ١٩٦٩ بين وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين ووفد اتحاد الكتاب السوفيات .

العربي ، كان لكل منها تأثيره الكبير ، مضافة اليها حرب التحرير في الجزائر ثم هزيمة حزيران عام ٦٧ التي يعتبرها البعض نقطة التحول في التاريخ العربي . كل هذه المؤثرات أسهمت في أطلاق المرأة للمشاركة في التعبير عن مشاعر وحوادث لم يسبق للادب العربي ان عبر عنها . هي التحرير والبطولات الوطنية .

(٣)

يحمل ادب هذه الفترة الميزات التالية في ابراز هذا الوجه الجديد للمرأة :

١) لم تعد المرأة جنسا فقط ، بل هي ايضا شيء اخر .

● هي حلم كان في الماضي فرديا فتعمق الان واصبح حلم شعب وامة . المرأة العشيقة ، امتزجت بالعناصر الاولى للحياة فهي النار والتراب والماء والهواء . وفي القصص كثير من الشواهد التي تصور البطل يقبل تربة الوطن وكأنه يرتمي على صدر حبيبته او يرى في بريق الطلقة النارية عذوبة ابتسامتها ، الخ) .

● المرأة ، هي الارض ، وهي الوطن : واغتصاب الارض كاغتصاب المرأة يلحق بالرجل العار . واسترداد الارض ، كاسترداد المرأة ، تهون في سبيلها الدماء . والعاشق في سبيلها ، يضحي بكل ما عرفته فروسية عنترة ، وحروب داحس والغبراء من معان للحب والشرف . والعاشق ، هو ايضا الفارس ، الذي يحيا بالحب وبالمقاومة وبالشعر . (هكذا عرفنا المرأة ـ الحب لدى كبار كتاب الجزائر ككاتب ياسين مثلا حين جعل بطلته « نجمة » رمزا للجزائر الجريحة المغتصبة ، فمزج فيها عراقة العروبة ووجه الحاضر المتطلع الى الاستقلال والحرية . وابلغ مثال ايضا على هذا التمازج بين الارض والمرأة وحلم التحرير ما نلمسه في شعر المقاومة العربية ، وبنوع خاص في شعر محمود درويش حيث تبلغ المرأة ذروة الرمز . فهي الحبيبة والارض والشعب . ويتعمق الرمز حتى يصعب التفريق بين عناصر التمازج فاذا العاشق هو فرع من أصل كما يبدو من هذا العنوان : عاشق من فلسطين . او حبيبتي تستيقظ من نومها) .

٢ ـ الميزة الثانية لتأثيرات هذه الفترة على الادب ، انها ادخلت اوضاعا جديدة للمرأة نتيجة التطور الاجتماعي . انها مثلا المدرّسة او العاملة او الكاتبة ، او المناضلة ، او الشاعرة .

٣ ـ تقييم جديد للمستوى الفني للمرأة . لا يستطيع المؤرخ الادبي مثلا ، الا يضع نازك الملائكة او فدوى طوقان في منزلة كبار معاصريهما من الشعراء .

٤ ـ مشاركة المرأة الفعلية في النضال عن طريق الادب . فدوى طوقان مثلا ، على ما عرفت به قصائدها من عذوبة ورقة وشفافية ، ما تزال تصدح باعنف الابيات ثورة وبطولة ورفضا للاستعمار الصهيوني في فلسطين الى جانب محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من شعراء الارض المحتلة .

فالادب العربي المعاصر كان ، اما مناضلا باقلام نسائية (وهذا تميّز لانه ليس هناك الا ادب) او رمزا للنضال في أدب الرجال . (قصيدة جميلة بوحيرد مثلا لنزار قباني ترمز الى المرأة الجديدة التي فكت عنها اغلال الماضي لتخبىء في صدرها سر القدرة . كما فيها دعوة لنساء المشرق العربي لتحذو حذوها).

الملاحظة الهامة هنا ان المجتمع العربي يسبق الادب في التعبير عن تطور المرأة . الا اذا اعتبرنا ان الادب . ابتداء من عصر النهضة ، ما يزال يفعل فعله البطيء المخمّر والمهيىء لتفجير الثورة . ولكنا يجب ان نلاحظ ايضا انه لم تمض بعد الفترة الزمنية الكافية ، لتتجسد ادبيا ، الا من خلال بعض القصائد والقصص ، مشاركة المرأة في الفداء العربي . ولا بد للادب من ان يصور يوما البطلة التي فجرت القنابل ، وعرفت السجون ، وقادت خطف طائرات العدو .

المرأة العربية الجديدة في المجتمع الجديد التي لم يصورها بعد الادب العربي . ولكن التي لا بد ان يصورها يوما ، هي التي شغلت الصحافة العالمية في الاسبوع الماضي : امرأة جميلة ، انيقة . في وجهها ملامح عروبة اصيلة ، ذات سمرة داكنة ، كوت جبينها شمس الصحراء ، وامتدت نظراتها عبر الفلاة ، في نفسها طموح لا يحد كذرات الرمال التي انبتتها ، وعطش الى العلم لا يرتوي . بطلة في ثورتها عزم الابطال ، وايمان الانبياء ، ويقين العالم وحب البقاء .

تلك البطلة ، هي بنت الثورة الفدائية العربية التي لا تفرق بين مناضل ومناضلة . لقد حققت اكبر نصر عرفه التاريخ العربي المعاصر : المساواة تجاه الحياة والموت . لقد خلق الشعور بالظلم والالم لدى الشعب العربي صفاء ذهنيا وفجّر فينا عزما ما كانت لتحققه المرأة في طريق تطورها الطبيعي .

ان عالمنا العربي ، بثورته الفدائية ، وبجناحيه المتكاملين ، مؤهل ليلعب دورا حضاريا جديدا يساهم فيه بتحرير العالم من سرطان الصهيونية والاستعمار الذي يدعمها . ولا شك في ان الادب العربي الحديث ، لا سيما بعد هزيمة حزيران ، يشارك مشاركة ايجابية في هذه الثورة ، من داخل الارض المحتلة ومن خارجها . وفي هذا الادب ، يبقى دور المرأة مزدوج الفعالية : الثورة من اجل انتصار الثورة التحريرية .

عايدة مطرجي ادريس